كلمات في مناسبات

(1) العقيقة

المحافَظَة علَى النَّسْل

مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية

أحمد الجوهري عبد الجواد

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمه الله وبركاته، بسم الله سبحانه وتعالى وبحمده، وصلاة على رسوله وسلامًا، ورضوانًا على صحابته وتابعيهم حتى نلقاهم، أما بعد فمرحبًا بكم أيها الإخوة الأحباب في هذه المناسبة السعيدة أسال الله تبارك وتعالى أن يكثر مناسباتنا السعيدة، نبارك فيها لأخ من إخواننا على مولوده ونشاركه سروره به، أسال الله تعالى أن يجعله مباركًا على نفسه وعلى والديه وعلى أهله وعلى أمة الإسلام.

أيها الإخوة الكرام، وبهذه المناسبة نتحدث في معنى عظيم من معاني الشريعة يتعلق بها، وهو مقصد الشريعة في المحفظة على النسل.

تعلمون – بارك الله فيكم - أن ربنا تبارك وتعالى عليم حكيم، وأن نبينا صلى الله عليه وسلم أوتي الكتاب والحكمة، ولهذا جاءت شريعتنا الإسلامية لغايات عظيمة وأهداف جليلة، واشتملت أحكامها على أسرار عالية ومعان غالية، وقصدت إلى حكم كريمة وعلل رفيعة وأوصاف جليلة ومقاصد سامية، وقد جمعها العلماء في ستة مقاصد، هي:
- حفظ الدين.
- وحفظ النفس.
- وحفظ العقل.
- وحفظ النسل.
- وحفظ المال.
- وحفظ العرض.

والمقصد الذي يتعلق بمناسبتنا السعيدة من هذه المقاصد كما هو واضح: حفظ النسل، والنسل ضرورة من الضرورات ومهم من المهمات، كيف لا وهو ركيزة أساسية من ركائز هذه الحياة، قال ربنا تبارك وتعالى: {وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة} أي: قومًا يخلف بعضهم بعضًا قرنًا بعد قرن وجيلًا بعد جيل، هؤلاء – أيها الإخوة - هم الذين سيقومون بعبادة المولى الجليل: {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}، هؤلاء هم الذين سيعمرون الأرض بمنهج الله تعالى: {هو أَنْشَأَكم مِنَ الأَرْضِ واسْتَعْمَرَكم فِيها} يصلون ويصومون ويزكون ويحجون ويتعاونون على الخير ويرفعون راية الإسلام ويبلغون كلمة الله إلى مشارق الأرض ومغاربها.

ولذلك وجدنا الإسلام يعتني بالنسل حتى يبقى ببقائه الوجود الإنساني وتؤدى بواسطته هذه المهام العظيمة، بفناء الإنسان يخرب العالم وبانقطاعه تتعطل الحياة.

وجدنا الإسلام يشرع الزواج ويرغب فيه وينهى عن كل ما يعطله، يروي لنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن الصحابي الجليل عثمان بن مظعون من شدة رغبته في الإقبال على العبادة، أراد أن يتفرغ لها ويهجر ملاذَ الحياة، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستأذنه في أن ينقطع عن النساء ويقبل على طاعة الله تعالى فلم يأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن ترك ملاذّ الحياة والانقطاع للعبادة، من الغُلو في الدين والرهبانية المذمومة، وليس هذا هو الدين الصحيح.

وإنما الدين الصحيح هو القيام بما لله من العبادة مع إعطاء النفس حظها من الطيبات، ولذا فإن النبي صلى الله عليه وسلم لو أذن لعثمان، لاتبعه كثير من المُجدّين في العبادة.

وهؤلاء نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حملهم حب الخير والرغبة فيه على أن ذهبوا فسألوا زوجات النبي صلى الله عليه وسلم عن عمل النبي صلى الله عليه وسلم في السر الذي لا يطلع عليه غير أزواجه.
فلما أخبرهم أزواج النبي صلى الله عليه وسلم به استقلوه، وقالوا: وأين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن الله تعالى قد غفر لنبيه صلى الله عليه وسلم ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! كأنهم يقولون: إنه صلى الله عليه وسلم غير محتاج إلى الاجتهاد في العبادة.

وراحوا يقترحون لأنفسهم ألوانًا من العبادة يقومون بها ويجتهدون في أدائها بعضهم قال إنه سيترك النساء ولا يتزوج ليتفرغ للعبادة، وبعضهم قال: إنه سيواصل الصوم ولا يفطر زهادةً في ملاذ الحياة، وبعضهم قال إنه سيقوم الليل كله ولن ينام.

فلما بلغت مقالتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع الناس وخطبهم فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «ما بال أقوام قالوا كذا؟ لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني".

وهكذا تحث الشريعة الإسلامية العظيمة على الأسباب التي بها يدوم النسل، ورأينا القرآن يعيب على قوم لوط فعلهم القبيح الذي يعطل هذه الغاية الكريمة كما قال لهم نبيهم صلى الله عليه وسلم: {أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل} أي: وتقطعون النسل.

تحث الشريعة الإسلامية على كل ما يعزز النسل ويكثره ويحافظ عليه مثل: تشريع النكاح والترغيب فيه وسائر ما يتصل به من أمور وأحكام، وتحذِّر من الأسباب التي تمنعه أو تقلله أو تعدمه، مثل: العزوبة واللواط والسحاق والزنا وما يضعف الشهوة أو يقطعها أو يمنع الحمل، والإجهاض.

ويكفي أن نذكر قول الله تعالى عن النبيين: {ولقد أرسلنا رسلًا من قبلك وجعلنا لهم أزواجًا وذرية}، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم: "تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم يوم القيامة".

أيها الإخوة، إن كل نفس من الأنفس يكون الواحد منا سببًا في وجودها تكون هي سببًا في رفعة درجاته وتكثير حسناته وقرب منزلته من الله ومن سيد الأنبياء عليه الصلاة والسلام، ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة فيقول: يا رب من أين لي هذا؟ فيقول: باستغفار ولدك لك".

وبفضل الولد الصالح يبقى أجر عمل العبد وتدر عليه الحسنات بعد موته، كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له".

ولهذا وجدنا حرص النبيين قبل غيرهم على بقاء ذرية لهم من بعدهم تمد في أعمارهم وتنهض بأعمالهم وتزيد في حسناتهم، كما قال تعالى: {وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي}، { ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك}، { ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم}، {واجعل لي لسان صدق في الآخرين}، {كهيعص ذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفيا قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا}.

ثم رأينا سادات الأولياء يمضون على طريقهم: {والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما}، وكان عمر رضي الله عنه يقول: "والله إني لأكره نفسي على الجماع - يعني يجبر نفسه على الجماع - رجاء أن يخرج الله مني نسمة تسبح الله".

فهذا الفضل العظيم جعلته الشريعة الإسلامية للمسلم ليرغب في الولد الصالح، وخصت الشريعة البنات بمزيد فضل، ومن ذلك:

- أنها سترة ووقاية من النار، كما في الحديث عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: "جاءتني امرأة، ومعها ابنتان لها، فسألتني فلم تجد عندي شيئا غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها شيئا، ثم قامت فخرجت وابنتاها، فدخل علي النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته حديثها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: من ابتلي من البنات بشيء، فأحسن إليهن كن له سترا من النار".

- وأنها وسيلة إلى صحبة المصطفى صلى الله عليه وسلم في الجنة كما في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من عال جاريتين دخلت أنا وهو الجنة كهاتين وأشار بأصبعيه".

أيها الإخوة، إن النسل المسلم بنين وبنات مبعث فرحة ومصدر سعادة خاصة وعامة، خاصة بأهل البيت وعامة للمسلمين جميعًا من الأقارب والجيران والأصدقاء وسائر أهل الإسلام، ولهذا فإننا - كما نرى الآن – نشاهد الوالدين السعيدين وقد اجتهدا في العقيقة عن ولدهما ويشاركهما أحبتهما من العائلة والجيران والزملاء، حرصًا على تطبيق السنة وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " كل غلام مرتهن بعقيقته تذبح عنه يوم السابع ويحلق رأسه ويسمى".
هذه سنن في المولود في يوم السابع:
- يسمى باسم حسن، عبد الله، عبد الرحمن، وهذه أحب وأفضل الأسماء إلى الله كما صح عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن سمينا المولود قبل يوم السابع فلا بأس ولو كان يوم الولادة، كما وقع ذلك لنبينا صلى الله عليه وسلم ففي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال: "ولد لي الليلة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم".

- يذبح عنه شاة أو شاتان عن الذكر وشاة عن الأنثى.
- يحلق رأسه، إن كان يتحمل الحلق.

- ويوزن شعره ويتصدق بوزنه فضة أو ذهبًا بحسب المقدرة، وإذا لم نحلقه نقدره تقديرًا في حالة لم نتمكن من حلقه لأي سبب من الأسباب.

- ونضع على رأسه شيئًا من الطيب بعد الحلق.
- ونختنه إن كان يتحمل الختان، هذان الأمران – الحلق والختان - إلى تقدير أهل الاختصاص.

وهناك سنن أخرى في يوم ولادته، منها:

- أن نؤذن في أذنه اليمنى، فإن أقمنا مع ذلك في أذنه اليسرى فلا بأس، وهذا كله برفق ولطف وحنان وأناة.
- نأخذ شيئًا حلوًا من تمر أو عسل أو غيرهما ونضعه في فمه حتى يتذوقه.

هذه فرحة أهل البيت الخاصة بالوالدين والأقربين منهم فيما يفعلونه مع المولود ثم يأتي دورنا في تهنئتهم وإعانتهم ومشاركتهم بالحضور والتهنئة والمباركة والدعاء وإجابة دعوتهم إلى الطعام وغيره والمحادثة الطيبة والتذكير بالسنن مثل هذه الكلمة الطيبة، وقد شاركت الملائكة المكرمون نبي الله إبراهيم صلى الله عليه وسلم الفرحة والسعادة حين حملت إليه وإلى زوجه الكريمة البشرى بمولودهما، وحكى لنا القرآن الكريم ذلك: {فبشرناه بغلام حليم}، {وبشروه بغلام عليم}، {إنا نبشرك بغلام عليم}.

ومن هذا الباب مشاركة الصحب الكرام الزبير وأسماء لما ولدت ابنهما عبد الله في أول سنة من الهجرة إلى المدينة.

وقد كان الصحابة الكرام يأتون بالصبيان إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيبرك عليهم – يدعو لهم بالبركة –، ويحنكهم – يذوقهم طعم التمر -.

وما زال المسلمون يشاركون في هذه المناسبات السعيدة ويدخلون السرور على إخوانهم بتبريكاتهم الجميلة وتهنئاتهم التي تحمل المعاني الجليلة، ومن هذه التهنئات ما ورد في أثر الحسن البصري رحمه الله تعالى:

فقد جاء أنه علم إنسانًا التهنئة فقال: قل: بارك الله لك في الموهوب لك، وشكرت الواهب، وبلغ أشده، ورزقت بره.

ويستحب أن يرد والد الطفل أو والدته على المهنئ فيقول: بارك الله لك، وبارك عليك، أو جزاك الله خيراً ورزقك مثله، أو أجزل ثوابك، ونحو هذا.

وورد عن الحسن البصري كذلك أنه سئل عن صفة التهنئة فقال: قل "جعله الله مباركًا عليك وعلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم".

وفي هذا الأثر الأخير دليل على أن الفرحة هنا فرحة عامة بهذا المولود الذي يزيد أمة محمد صلى الله عليه وسلم فردًا صالحًا ينتظر أن يكون ولدًا طيبًا ثم شابًا طائعًا ثم زوجًا كريمًا ثم أبًا محبوبًا ثم فردًا ساعيًا في خير أمته بخلقه وعمله وربما بقوله وقلمه.

نسأل الله أن يجعل ابن أخينا مثل ذلك.

ونعيد التهنئة مرة أخرى في نهاية هذه الكلمة ليقولها من لم يكن قالها وليؤمن عليها من قالها، نقول: "بارك الله لك في الموهوب لك، وشكرت الواهب، وبلغ أشده، ورزقت بره، جعله الله مباركًا عليك وعلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم".

وعقبى لعندكم في المسرات ونهنئكم في بقية أعماركم بالخيرات.

والحمد لله وحده، وصلى الله وسلم وبارك وشرف وكرم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.